مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العـدد:3 (2022)، ص: 506-527

الدولة الوطنية والعنف الطائفي في فكر ناصيف نصار

The National State and Sectarian Violence in the Thought of Nassif Nassar

فاتن سفيان[1]، محمد بن سعيد[2]

[1] المركز الجامعي نور البشير (البيض)، f.sofiane@cu-elbayadh.dz

[2] المركز الجامعي نور البشير (البيض)، مخبر، الأنساق، النماذج، البنيات والممارسات، جامعة وهران 2، bensaidmed67@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/08 تاريخ القبول: 2022/09/12 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص: يتصدر سؤال العنف الساحة الفكرية والفلسفية، وتعد مسألة الهويات الجزئية من أبرز المسائل المطروحة في إطاره، بحيث أصبح العنف بين الطوائف يهدد استقرار الدول وديمقراطيتها، وظلت الدول العربية في محاولة تطبيق نموذج الدولة القومية تعيش نوع من الصراع الداخلي، فحتى الجماعات التي تتحدث نفس اللغة وتدين بنفس المعتقد، وتشترك في نفس الثقافة، لم تتمكن من الاندماج الحقيقي داخل المجمع.

وفي محاولة لتقديم حلول رأى ناصيف نصار أن الحل في الخروج من مأزق الطائفية هو التأسيس لمجتمع جديد يتحمل كل الاختلافات، ولم يعتبر التنوع خطر مهدد وقاتل للدولة الوطنية وإنما رأى في فسيفساء الهويات داخل الدولة الواحدة إثراء وتشجيع على الإبداع يربطهم شعور الانتماء الذي يبرر الانتقال من مفهوم الدولة إلى مفهوم الأمة وذلك لا يكون إلا في مجتمع علمي علماني ديمقراطي.

كلمات مفتاحية: طائفة، انتمائية، ناصيف نصار، دين، عنف.

Abstract: The question of violence is at the fore in the intellectual and philosophical area, and the issue of partial

identities is one of the most prominent issues raised in its framework, so that violence between sects threatens the stability and democracy of states. So the Arabic countries kept trying to apply the example of a national country, but they still live kinds of inner struggle. Even with those who have the same belief and share the same culture, it was not able to truly integrate, and in an attempt to provide solutions, Nassif Nassar saw that the solution to getting out of the sectarian impasse is the establishment of a new society that bears all differences, a scientific, secular, democratic society

Keywords: Sect, Belonging, Nassif Nassar, Religion, Violence.

المؤلف المرسل: فاتن سفيان

1. مقدمة

ارتبط مفهوم الدولة الوطنية بالحقبة الاستعمارية فهو مفهوم حديث في القاموس العربي، ولقد كان للوضع المؤسف الذي عاشته الشعوب العربية في الفترة الاستعمارية فضلا من ناحية أنه أيقظ الشعوب من غفلتها، وجعلها تستشعر خطر التفرقة، والقطيعة فيما بينها لذلك تكاثفت كل الجهود لتجسيد المفهوم كواقــع والمعروف أن الدولة الحديثة في تركيبها تأخذ شكل القبيلة والعشيرة لكنها ترتقي به إلى مستوى أعلى وذلك بتطوير المؤسسات المسؤولة عن تنظيم الحياة الاجتماعية وضبط الحياة السياسية من خلال استحداث سلطة القانون.

وفي ظل تنامي النزاعات داخل الدولة تعد الطائفية أحد القضايا اللامعبر عنها بما يكفي، غير أنه ينبعث البحث فيها بين فترة وأخرى لتتجاوز حيز المسكوت عنه، عندما تتأزم المسارات السياسية في العالم العربي بشكل خاص؛ حيث تهدد الهويات الجزئية حلم تحقيق الدولة الوطنية بسبب إصرارها على فرض هوياتها

دون إقصاء أو تهميش، وبالرغم من مساهمة الطوائف في ارتفاع مؤشر العنف إلا أن ناصيف نصار يرفض فكرة إقصائها من الممارسة السياسية والاجتماعية، فكيف تستطيع الدولة الوطنية الحفاظ على كيانها في ظل تنامي الطائفية؟

2. الطائفية المفهوم والماصدق

قبل أن نبحث في كيفية مساهمة الطائفية في تنامي العنف داخل الدولة الواحدة وجب في البداية أن نضبط مفهوم الطائفة ليتسنى لنا فهم ما ترمي إليه المفردة.

1.2 الدلالة اللغوية والاصطلاحية لمفردة الطائفة

مفهوم الطائفة Sect هو مفهوم معقد إلى حد كبير ،خاصة في الوقت الراهن حيث كان سابقا مفهوم بريء الدلالة، وهذا لأن "الطائفة من الشيء، جزء منه ... يقال طائفة من الناس، وطائفة من الليل... وفي حديث عمران بن جهين وغلامه الأب لأقطعن منه طائفة... أي بعض أطرافه" (ابن منظور، 2005، ص ص 161،162) فتعبر المفردة عن وجود كل أخذ بعضه ليكون هذا الأخير جزء من ذلك الكل ولا يختلف عنه، كما أن جذر الكلمة مرن الاستخدام؛ فيستخدم بتعبيرات مختلفة، تدل في غالب الأحيان على تحرك جزء داخل الكل، ولكن حركته تلك لا تعني استقلاله كليا عن انتمائه لذلك الكل.

أما إذا أردنا أن نعود إلى ما اصطلح عليه في استخدام الكلمة وجدنا ضالتنا فيما يقدمه جميل صليبا (1902 -1976) الذي يقول: "الطائفة هي الجماعة، وتطلق على جماعة من الناس يجمعهم مذهب واحد، أو مصلحة مشتركة، أو معتقد واحد كالطوائف الدينية... وتطلق الطائفة أيضا على الفرقة، تقول : طائفة الفلاسفة وطائفة الباطنية، أو تطلق على الجزء والقطعة، يقال: طائفة من الشيء أي قطعة منه"(صليبا جميل ، 1982، ص 7) فتتميز الجماعة التي يطلق عليها لفظ الطائفة في أن أفرادها يشتركون ويتبنون أيديولوجيا معينة ويلتفون حولها،

فقد يشتركون في منهج وطريقة واحدة يعتمدونها، أو في حكم يعتقدون بيقينيته فلا مجال للشك فيه عندهم، وبالتالي لا يقتصر الاسم على توجه واحد وإنما يشمل كل جماعة تتبنى فكرة وتلتف حولها، وبهذا تتعدد أنواع الطوائف بتعدد الايديولوجيات التي تتبناها الجماعات.

من خلال ما طرح يتضح أن الطائفة كمفردة كان استخدامها فارغا من أي تلميح عقائدي أو سياسي، أما فيما أصطلح عليه العرب فقد بات واضحا أن المفردة أصبحت تحمل معاني ودلالات متنوعة، وأبعاد مختلفة ذات ارتباط وثيق بجميع النواحي الحياتية للإنسان، والملفت أن هذه الكلمة أصبحت تشكل عبئا على الدولة واستقرار المجتمع؛ حيث لم تعد كلمة طائفة بريئة الدلالة لأنها سيست وأخذت معاني أخرى مختلفة، كالدلالة على تبني جماعة معينة لفكرة وأيديولوجيا تختلف عن السائدة ويمكن أن تكون هذه الفكرة سياسية، أو دينية، أو اجتماعية، أو إثنية . عرقية . أو غيرها ويطلق على هذه الجماعة اسم الطائفة وتنسب إلى أيديولوجيتها كقولنا: الطائفة الدينية الشيعية، أو الطائفة الكردية نسبة إلى العرق وهكذا.

وقد اعتبرها ابراهيم مدكور (1902-1996) "جماعة مغلقة اجتماعية أساسها الوراثة والولاء وبأنها تقوم على أساس ديني" (مدكور إبراهيم، 1983، ص 111) فتحولت الكلمة من كونها تعبر عن جزء في جماعة يتحرك داخلها إلى جماعة كلية منفصلة عن باقي الجماعات في معزل عنهم تتسم بالانغلاق والغموض، وتكوينها المتوارث بين الأجيال الاجتماعية. كما يذكر ناصيف نصار (1940) مفهومه للطائفة فيقول: "جماعة منظمة من الناس يمارسون معتقدا دينيا بوسائل وطرق وفنون معينة. إنها إذن تجمع ديني في الأصل والممارسة والغاية، وإذا ما اكتسبت مع الزمن بعدا اجتماعيا سياسيا، فذلك عائد إلى نوع فهمها وتطبيقها للدين وإلى الظروف التاريخية التي اجتازتها" (نصار ناصيف ،

2016، ص 140) من خلال الإمعان في محتوى القول يمكن أن يُستشف أن الطائفة بالنسبة لنصار لا تخرج عن كونها جماعة تبنت أيديولوجيا دينية، لذلك فالطائفة بالنسبة له لا يحكمها إلا البعد الديني، سواء في النشأة، أو حتى في الغاية وإن كان مدكور قد حصرها في الجانب الديني فقط، فإن نصار يوسع الدائرة وذلك من خلال تأكيده على أن تحولها لطائفة سياسية أو اجتماعية نتيجة فهم على نحو ما جعلها تتحول من الممارسة الدينية إلى الممارسة السياسية أو الاجتماعية مع التأكيد على أن بدايتها الأولى دينية.

ومن زاوية أخرى يبادر نصار للتميز بين مفهوم الطائفة sect ومفهوم الطائفية sectarian ويظهر ذلك في قوله: "ينبغي التميز بين مقتضى الدين في ذاته ومقتضى الجماعة التاريخية المعينة التي تنتسب إلى الدين أو إلى أحد مذاهبه هنا يبرز مفهوم الطائفة ومفهوم الطائفية كوسطين بين الدين بمعناه الماورائي والدين بتجسده الاجتماعي التاريخي فالطائفية إيديولوجية، والدين يتحول إيديولوجية بقدر ما يتجسد في أنظمة طائفية، في المجتمعات المتعددة الأديان" (نصار ناصيف، 1986، ص 71) يتضح من خلال ما تقدم أن لفظ الطائفة يطلق على الجماعة التي تتبنى الدين خالصا لذاته، أما الطائفية فلفظ يطلق على الجماعة التي تأخذ الدين كشعار وتحتمي به لتبرر ممارسات أخرى غير دينية فيصبح الدين غير مطلوب لذاته وإنما كأيديولوجيا.

من خلال ما تقدم يفهم أن الطائفية sectarian في حقيقة مفهومها المشاع اليوم تعبر عن نوع من التصارع الحاصل بين جماعات في المجتمع على السلطة والمكانة السياسية عموما، هذا ما يقود للقول بأن المصطلح في مفهومه المعاصر قد اختلف كليا، لا وبل اتخذ مسارا مغايرا تماما وأصبحت المفردة لا تطلق على جماعة عادية ولا على جمع لا تحركهم

إيديولوجيا معينة، إنما أصبح حتى نسبهم اليوم يتحكم فيه توجهم الإيديولوجي، ومن هنا تعددت وتنوعت الطوائف.

2.2 أنواع الطوائف: تختلف الطوائف باختلاف انتماءاتها وعلى خلاف الذين حصروا الطائفة في الهوية الدينية يرى ناصيف نصار، وبرهان غليون (1945) . مفكر سوري اهتم بالقضايا السياسية وخاصة مشكلة الطائفية في العالم العربي . وغيرهم أن الطائفة على أربعة أنواع يعود هذا التنوع للأسباب المؤدية إلى قيام كل نوع.

1.2.2الطائفة الاجتماعية: ولعل أبرز الاسباب التي أدت لظهورها هو عدم الانسجام الكلي بين أفراد المجتمع الواحد في تبني العادات والتقاليد، وفي التوجه الذوقي وغيرها من الأسباب التي لم تساعد على تحقيق التلاحم الاجتماعي بين فئات المجتمع مما أدى لظهور جماعات بينهم نوع من النفور وعدم الانسجام، كما ترفض هذه الجماعات الامتثال للنظام الاجتماعي السائد هذا ما أدى إلى تشكل خطاب سياسي يؤكد على ضرورة القضاء على هذه الجماعات الصغيرة التي تؤثر بشكل كبير على البنية الاجتماعية فأُقترح كحل للخروج من مأزق الطوائف الاجتماعية فكرة القومية التي تعبر عن خضوع هذه الطوائف على اختلافها للدولة لكن باء هذا الحل بالفشل (غليون برهان ، 1990، ص 13) ومما لا شك فيه أن الطائفة الاجتماعية هي التي تشكلت إثر خروج مجموعة من الناس عن النمط الاجتماعي العام للمجتمع، وتمكنوا من الالتفاف حول نمط آخر يكون في غالب الأحيان معارض لما رفضوه، فتوجه الدولة جهودها للقضاء على التصادم بين الطوائف من خلال دمجها ضمن المجتمع ويؤكد غليون فشل الدولة في هذا المسعى نتيجة رفض هذه الطوائف الاستسلام لما يفرض عيلها.

2.2.2 الطائفة السياسية: هي التي تنشأ إثر اصطدام عصبية مع عصبية اخرى لا تتفق معها ذكر الشهرستاني (1086-1153) أن أعظم خلاف في تاريخ الأمة

الإسلامية خلاف الإمامة "إذ ما سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان " (الشهرستاني، 1404، ص 24) إذ يعد الصراع السياسي على السلطة قديم فغريزة حب التملك واعتلاء مناصب الحكم مرتبطة بوجود الإنسان، وتبلورت في تاريخ المسلمين حول مسألة الإمامة والبحث في مسألة من الأحق بخلافة الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول، ولم ينتهي هذا الصراع السياسي في تلك الحقبة بل كان له دور كبير في تطور مفهوم الطائفية.

العصبية التي تحكم الطائفة السياسية أنواع فكل مُخْتَلِفٍ مع ما يسود داخل الدولة، أو مع قانون الدولة يشكل عصبية مضادة، ولكن العصبية لوحدها لا تصبح كالقنبلة داخل الدولة إلا إذا كانت تمثل نظام معين أو تسعى لخدمة توجه ما؛ مثال على ذلك إذا كان النظام السياسي للدولة يتبنى التوجه الإسلامي فهذا يعني أن كل جماعة داخل الدولة لا تتبنى النظام السياسي الإسلامي وتتبنى غيره تسمى طائفة سياسية يمكن أن تشكل خطرا على الدولة لأنها تتنافي وما تكرس له الدولة من قيم ومفاهيم، لذلك تتجه الدولة إلى محاربة هذه الطوائف للحفاظ على هيبتها وعلى مركزية قراراتها.

3.2.2 الطائفة الدينية: لعل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ورد في صدد انقسام الأمة كان أحد الدوافع التي جعلتهم يرجعون الطائفية إلى الدين حيث جاء "عن عوف ابن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة، وسبعون في النار. وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة؛ فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة. والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار، قيل يا رسول الله من هم قال: الجماعة) (ابن باجة، دت، ص 1322) وبعيدا عن أن الحديث كان يحمل في معناه أن الأمة الإسلامية ستنقسم لثلاثة وسبعين فرقة تكون أحدها ناجية وهذا ما كان سبب الصدام بين

الفرق المنقسمة لاحقا فإن الحديث يوضح أن تعدد الطوائف كان موجود قبل الإسلام في الديانات السابقة في اليهودية والمسيحية، فالانقسام الفرق الإسلامية ليس هو بداية الطائفية، وإنما ارتبطت الطائفية بالدين عموما، ويعود سبب الهول الملفوف حول الطائفة الدينية إلى ما يدسه الآخر من فتن من خلال التشكيك في الدين، ومن أجل مصلحة معينة ينشدها، فتسعى كل طائفة دينية لفرض نفسها على الأخرى من منطلق وثوقي فيما تفهمه من نصوص الدين.

4.2.2 الأقليات : أما النوع الرابع من الطوائف هو ما يعرف بالأقليات ويقصد بالأقلية هي مجموعة تضم عدد من الأفراد لا يقترب من نصف أفراد المجموعة الأكبر منها وتمتلك هذه الأقلية هوية مميزة عن الأكثرية السائدة فقد تختلف عن سكان الدولة في اللغة أو الدين، أو العرق، أو الماضي، والتاريخ فتسعى للحفاظ والدفاع عن اختلافها ذاك كي لا تتماهى مع هوية الأكثرية السائدة وقد تكون أقلية دينية أو عرقية مثلا، ويؤكد غليون أن هذه الأزمة بدأت تظهر للعيان منذ "إعطاء السلطات العثمانية التي كانت تدبر شؤون الوطن العربي حق الإشراف على الأقليات الدينية للدول الأجنبية" (غليون برهان ، 1990، ص 16) فسعت هذه الدول الأجنبية إلى القضاء على التمايز الحاصل بين الطوائف وإجبارها على التماهي الكلي في معتقد الدولة ونظامها الأساسي حيث بدأ تمرد الأقليات من منطلق الدفاع عن هوياتهم.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أصبحت هذه الأقليات بمثابة نقطة ضعف لأي دولة ويمكن أن تستخدم ضدها من طرف الدول المعادية لهذا توجهت السياسات لمحاولة التخلص من الأقليات واضطهادها مما زاد في عداء هذه الأخيرة اتجاه الأنظمة الحاكمة، وازدادت حدة خطاب الكراهية أكثر فأكثر وباتت الطائفية هي السم القاتل للدولة الوطنية.

3.الطائفية مأزق الدولة الوطنية: أصبح التصادم الحاصل بن الطوائف يشكل خطرا على الدولة والملفت أن الطائفية ليست بمعطى حديث الظهور، وقبل أن نتعرف على الأسباب المؤدية لتعاظم العنف داخل الدولة الوطنية في ضل الطائفية، نطرح الأنموذج القديم حتى نتمكن من تقدير الأسباب.

1.3 الأنموذج القديم للدولة الوطنية

الدولة الوطنية في مفهومها التقاء مجموعة من القوميات المختلفة في رقعة جغرافية واحدة يحدث التفاعل بين ثقافاتها وتنوع معتقداتها تحت سلطة القانون. لكن هذا المفهوم من ناحية تطبيقاته لا مسمياته ليس غريبا عن الحضارة الإسلامية حيث وجد مع الدولة الإصلاحية عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، الذي توسعت في عصره رقعة الدولة فتنوعت فيها الأجناس والأعراق وقد تمكنت من استيعاب كل الطوائف التي كانت تحت لوائها دون تميز ولا أي تفرقة "إذ أن شرعة هذه السلطة وقوة الولاء الذي كانت تتمتع به من قبل رعاياها على اختلاف مذاهبهم، كان يقوم بشكل أساسي على احترام هذا النظام المللي الذي يعطي لكل طائفة نوعا من الاستقلالية والحرية في إدارة شؤونها والذي يتيح لها أن تعيش وتستمر في ضل الإسلام " (غليون برهان، 1990، ص 20) فاستطاعت الدولة الإسلامية أن تحتوي كل أطيافها وطوائفها وفئاتها نتيجة فرض الاحترام على أصحاب الملل المختلفة، وإعطائهم الحرية، والاستقلالية دون المساس بغيرهم، فكان الإسلام القوة الفاعلة والمحرك الأساسي في توجيه الدولة وإدارة شؤونها وكانت حالة التنوع والاختلاف تعد حالة صحية خلقت نوعا من التفاعل والتعاون والتجدد كما وسعت دائرة الاستفادة من الطاقات المختلفة التي تميز كل طائفة عن سواها مما ساعد على التعايش تحت لواء الدولة الواحدة.

وساهم الإسلام في تكوين دولة مركزية قومية لأول مرة حيث تحول الإسلام "إلى ثقافة قومية مشتركة وإلى عامل استقطاب وانصهار ساعد على تعميم

السلطة المركزية وتجاوز خطر الإنزلاق نحو الإقطاعية الغربية التي يجب رؤية قاعدته الأساسية في انعدام السلطة المركزية" (غليون برهان، 1990، ص 199) فالدين الإسلامي جعل السلطة مسؤولة أمامه كما يمكن مخالفتها بنصوصه، وعلى نقيض ما كان سائدا عند الغرب قامت الدولة الإسلامية على مفهوم أن " الدولة جماعة مواطنين، عاقلين وأحرار، وليست جماعة مؤمنين هذه الفكرة الأساس التي تستطيع الفلسفة السياسية العربية استخلاصها من تعليم أرسطو " (نصار ناصيف ، 1986، ص 36) وبطبيعة الحال كان وقتها تأثر كبير بالفلسفة اليونانية في الأوساط النخبوية العربية والإسلامية التي جعلتهم يدركون معنى العقل والحرية بالإضافة إلى تعاليم الدين الإسلامي التي كانت تبعث على التسامح والتعاون وتقبل الاختلاف فبذلك لم يكن الدين الإسلامي مقيدا بقدر ما كان محفزا على التحرر والاستقلالية وهذا ساعد على حفظ الهويات، وعزز الشعور بالكرامة الإنسانية، كما ساهم في نجاح الدولة الإسلامية من خلال استيعاب الكم الهائل من الطوائف واستغلال هذا التنوع في مواكبة عجلة التطور والتقدم.

وبالرغم من أن أنموذج الدولة الوطنية في الحقبة الإسلامية أثبت نجاحه على أرض الواقع وعلى جميع المستويات مما رفع من شأن الدولة الإسلامية حينها إلا أن ناصيف نصار فيما يعتقد أن الحكم الديني عموما يفرز نوع من الاستبداد و شكل من أشكال اللاهوت التيوقراطي وهذا ما يظهر في قوله: " إن لاهوت السلطة يصبح لاهوتا تيوقراطيا عندما يقرر أن الله نفسه يتدخل في حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية، ويخضعها لمشيئته من خلال المرجعية الدينية التي تتولى تفسير وتنفيذ تعاليمه وشرائعه"(نصار ناصيف ، 1995، ص ص 148، 149) ويوضح نصار تخوفه من الحكم التيوقراطي لأنه يختزل السلطات الدينية والدنيوية في يد رجل واحد يتولى إخضاع الجميع لتعاليم الدين، أو يمكن أن يكون إخضاعهم لفهمه الخاص للدين، وليس لمقاصد الدين ذاتها، وهذا يغلق

على العقل باب الاجتهاد ويحد من حرية الفرد، وكما أنه يقلل الإبداع وهو بذلك يعبر عن خوفه من أن تعيش الأمة العربية الأزمة التي عايشتها الشعوب الغربية في فترة العصور المظلمة، والمقصود أنه لا يمكن أن يتأسس العدل في دولة تفرض جماعة معينة اعتقادها على بقية الجماعات كما فعلت الدولة الإسلامية، لكن ما غض نصار الطرف عنه هو أن أساس الحكم في الدولة الإسلامية هو العدل الذي يقره الشرع الإسلامي، كما وأن الدين الإسلامي دنيوي يطلب الدنيا، فهو كذلك دين يطلب الآخرة، ونجاح الدولة الإسلامية في احتواء جميع الطوائف العربية وغير العربية من الفرس، الروم، والأتراك الوافدين عليها ما كان إلا من خلال التمسك بالعدل الذي شرعه المولى عزوجل وفي ما ذكر أعلاه دليل على ذلك.

2.3 فشل الدولة الوطنية في احتواء الطوائف

لم يعد الوضع الذي كان سائدا في الدولة الإسلامية الأولى مشهودا اليوم حيث أصبحت الدولة الوطنية تعيش عدم الاستقرار، والكثير من الصراع والتخبط فهي تتخبط متأزمة نتيجة فشل سياستها في استعاب هذا الكم الهائل من التعداد والتنوع الذي أدى إلى تنامي العنف الطائفي والعنف هو" الاستعمال غير المشروع أو على الأقل غير القانوني للقوة" (لالاند أندريه، 2001، ص 1555) بما يعني أن ممارسة الإكراه السياسي على الطوائف في الدولة يجعلها ترتد عن الميثاق القانوني الذي يجمعها ويكون ذلك بأفعال عدوانية غير قانونية، ويمكن أن تكون غير إنسانية كالقتل والإبادة الجماعية لمن هم من طوائف معادية وهذا بالضرورة يؤدي إلى زعزعة الدولة.

كما أن غياب الوازع الذي يمكن أن يجمع شمل هذه الطوائف المتقطع أوصالها، والتي تتنازع فيما بينها لإثبات ذاتها والحفاظ على هوياتها، سببا في انغلاق الطائفة على ذاتها، ولعل هذا السبب بالذات جعل الطوائف ترفض التجدد والخروج من عباءاتها المتوارثة "وقد شعر رواد النهضة بتأثير البنية الطائفية وعدم

انقيادها لحاجات التطور والتقدم، فنقدوا التعصب وحملوا ا على رجال الدين حملات عنيفة. غير أنهم لم يقدروا على التأثير بصورة واسعة على الجماهير الجاهلة. لكن رسالتهم لم تذهب مع الريح. وآثارها بعد الحرب العالمية الأولى والثانية واضحة في مجالات عدة" (نصار ناصيف 2016، ص 149) لذلك وعلى اعتبار أن الطائفة منبتها ديني راح رجال السياسة لمهاجمة رجال الدين حتى يتمكنوا من تغيير أفكارهم ومن ثم أفكار طوائفهم وتوجيهها صوب ما تريده الدولة، واعتبروا أن حالة الانغلاق الذي تعيشه الجماعات الطائفية ونوع العصبية التي تحكمها هو السبب المباشر في التشرذم الذي يظهر، وسببا في خلق الانقسام داخل المجتمعات، وتعاظم العنف والصراع فلم تعد الدولة قادرة على السيطرة والتحكم ولا تحقيق الأمان وفك النزاعات.

يعتمد نجاح الدولة الوطنية الأساسي كما رأينا في أنموذج الدولة الوطنية القديم على ضرورة استنطاق التعصب الكامن في نفوس الطوائف والمقصود بالتعصب هنا " التفكير بصفة أحادية وتحت راية أيديولوجيا معين إلغاء الآخر وإلغاء العقل" (زروخي الدراجي ، 2019، ص 256) مما يؤدي إلى التصادم ولا ينتهي ذلك إلا من خلال فتح باب الحوار، واعتماد نظام التداول على السلطة الطبيعي ومن خلال تجديد أعضاء النخبة القيادية، ويرى نصار بأن هذا " التمازج الحضاري لم يحدث ولا يمكن أن يحدث ما دمنا ندمج الدين بالدولة والطائفية بالإدارة والحكومة. التاريخ والواقع يصرخان: الطائفية هدامة ولا يمكن أن تكون بناءة" (نصار ناصيف، 2016، ص 68) حكم نصار على الطائفية بهذا الحكم كونه يدرك أن حتى ذلك التقارب الذي يحدث بين المسيحيين والمسلمين في لبنان ليس تسوية نهائية للصراع، وإنما تقارب يخفي صراعا قويا على السلطة وليست أبدا لخدمة الدين وإنما هي تسوية لخدمة المصالح، والحل الوحيد هو بمعالجة أسباب العنف وحفظ حقوق الجميع ،سواء كانوا أقلية، أو أغلبية على نفس

الدرجة؛ من خلال كفالة حقوقهم في الاعتقاد والتدين وإشراكهم في المسؤولية، ووجب أن يكون هذا شيء مقدس في الدولة الوطنية حتى تشعر الطائفة بحقها في التعبير عن نفسها وحقها في تبني معتقداتها دون خوف من الاضطهاد ويتصاعد الشعور لدى هذه الطوائف بالمسؤولية وبأنها ملزمة بالمشاركة في صنع القرارات المصيرية.

وعلى خلاف ذلك ما حدث هو تماهي سلطة الحاكم مع سلطة الدولة مما أدى إلى ظهور سلطة غير شرعية تضطهد الشعوب وتعنفها وتحول مفهوم السلطة Authority إلى سيطرة و إلى استعباد واستبداد Tyranny في ظل هذا الظلم انفجرت الطوائف معبرة عن حقها في الحياة محتمية بثقافتها وعرقها ودينها تسعى لإثبات هويتها التي رفضها نظام الحكم وأختزلها "إلى انتماء واحد يضع الرجال في موقف متحيز ومذهبي ومتعصب ومتسلط، وأحيانا انتحاري ويحولهم في أغلب الأحيان إلى قتلة أو أنصاف قتلة، وإن رؤيتهم مواربة ومشبوهة" (معلوف أمين ، 1999، ص 31) فلا يمكن اختزال هويات متعددة في هوية واحدة، فإن حدث ذلك سيؤدي بالضرورة إلى إقصاء هذه الهويات وإبعادها عن الساحة، قد يكون هذا الإحساس بالتقليل والإقصاء يؤدي إلى انفجار القنبلة، وظهور، وحدوث الحروب الأهلية وارتفاع خطاب الكراهية، وتزايد العنف مما يضع الدولة الوطنية في موقف صعب وهذا ما حدث ويحدث في لبنان والعراق وسوريا وغيرها من بلدان العالم العربي.

وحتى فكرة التحالف بين الطوائف عموما هي تحالفات من أجل السلطة فكلما زاد التحالف بين الطوائف وسلطاتها زادت مساحة المصالح بينها؛ فتحالف السلطة الدينية، والسلطة السياسية لا يكون إلا لتحقيق مصلحة، وفي إطار هذه المصالح يبقى التحالف في حالة مد وجزر، نقصان وزيادة وفق ما يمكن أن يقدمه

طرف للآخر ولذلك فهذا التحالف ليس ضمانا لتحقيق الدولة الوطنية بحيث يمكن أن ينتهي فور انقضاء المصلحة.

يلخص نصار كل ذلك في قوله: "الانغلاق على الذات في عالم السلطة بداية تدمير للسلطة نفسها" (نصار ناصيف، 1995، ص 177) ويقصد بذلك بأن تقوقع الحكم في مجال السلطة بيد طائفة معينة هو أحد الأسباب التي تؤدي إلى التنرجس العنصري فلا يميل إلا لمن يواليه ولا يخدم غيرهم، بل ويقصي بقية الطوائف المخالفة ويسعى إلى محاربتهم مما يتسبب في الانقلاب على ذلك النظام.

إذن عدم احترام الدولة الوطنية للأقليات الطائفية في المجتمع الذي يفترض أنها تمثله، وكذا تعديها على معتقداتهم وكتم أصواتهم هو سبب فشلها، والطائفة التي لم تستطع التعبير عن ذاتها في الدولة تخلق في داخلها دولة لها تعبر بها عن ذاتها فيتسع نطاق الصراع، والعنف، ويتحول من صراع سياسي إلى صراع عصبوي، من هنا بدأت بوادر فشل الدولة الوطنية في استيعاب تعدد واختلاف الطوائف.

4. العلمانية كضمان للدولة الوطنية: في ظل تصاعد الصراع داخل الدول العربية يقترح نصار العلمانية كحل لأزمة الطائفية لكن العلمانية النصارية يلزم لتحقيقها عدة مفاهيم بداية بمفهوم الأمة.

1.4 من مفهوم الدولة إلى مفهوم الأمة

فشل الدولة الوطنية National State وعجزها عن دمج الطوائف تحت شعار المواطنة ساق العديد من المفكرين للبحث في حلول أخرى على اعتبار أن الطائفية كمفهوم معرفي وأيديولوجي تلتصق بصفة كبيرة بالوضع العربي الراهن " فالطائفة التي نتحدث عنها اليوم ليست هي طائفة الزمن الماضي لا من حيث مقوماتها، ولا من حيث عناصرها وأطرافها وأهدافها لا في لبنان ولا في كل البلدان العربية طائفية اليوم مرتبطة بمعطيات راهنة... إنها طائفية الدولة الحديثة "

(بنيون شوقي أحمد و آخرون، 2013، ص 64) فلا شك أن الطوائف اليوم أصبحت ذات طابع سياسي كما وأنها أصبحت معادية بشكل معلن أو مخفي للدولة ولنظامها محتمية بالتوجه الديني وفي الواقع لم يعد هناك علاقة بين التطرف الطائفي وبين التوجه الديني إلا كغطاء يواري النوايا الحقيقية لهذه الطوائف و التي تسعى لتحقيق أغراض سياسية.

فكر العديد من المفكرين العرب المنهمين بواقع الأمة العربية والإسلامية بطرح حلول واقعية يمكنها القضاء على أزمة الطائفية التي تلاحق الدول العربية من بينهم نذكر عبد الله العروي (1933) الذي يرى أن الدول " لكي تتصالح مع كل عناصر المجتمع، ترفع راية الاشتراكية القومية، وتتلخص هذه في تلفيق بين توخي القوة المادية والحفاظ على تراث السلف فتنادي بأعلى صوتها لن نفرط في شيء لا مما هو قائم في الحاضر ولا مما هو منحدر إلينا من الماضي" (العروي عبد الله ، 1995، ص 79) حيث يرى العروي في الاشتراكية الماركسية حل يرضي جميع الأطراف خاصة وأن الاشتراكية تقوم على فكرة عدم إلغاء الآخر ومشاركته في القرارات السياسية وترفع شعارات العدل والحرية والمساوات، لكن هذا التمازج الذي يقدمه الغرب ذا وجهين أحدهما ظاهر والآخر باطن، والباطن منه يسعى لإقصاء الدين لذلك وجب أن يجتهد المثقف العربي في قراءة الوجه الباطن حتى لا ينخدع بما يقدم من طرفهم.

من هذا المنطلق قرر ناصيف نصار ألا يكون العرب تابعين للأفكار الغربية وأن يحققوا استقلالا عربيا يشبه طريقة العرب في تفكيرهم وفي ثقافتهم يساعد في حل مشاكلهم، فرأى الرجل أن نقد الطائفية قد أظهر عدم جدواه لأن الاختلاف سنة الحياة والمجتمع يتحرك ويشق طريقه بالاختلاف، وهو قانون يضمن الحفاظ على إيقاع الحياة، وإنما يلزم التعامل مع التعصب الذي يؤدي إلى تحريف الحقيقة ومصادرة الحرية، وبفشل النموذج القديم أمام الطائفية وجب البحث

عن نموذج أقوى يمكنه أن يستوعب الاختلافات المذهبية والعرقية ولعل النموذج الذي يستحق هو "نموذج الأمة"، وهذا بالطبع دون إلغاء لدور الدولة في التجربة الحضارية، فالدولة هي الكيان السياسي للأمة وهي المنهج الوحيد الذي يمكن تفجير طاقات الإنسان فيه، ومهمة الأمة هي خلق الوحدة والترابط بين طوائفها والأزمة الحضارية الإسلامية تفاقمت حين قررت الدولة بجبروتها أن تلغي دور الأمة أو تقلصه تحت مبررات داخلية و خارجية وقضت على كل عمل نخبوي أراد أن ينتصر لدور الأمة لهذا غيبت كل القيم الروحية والثقافية التي كانت تربط وتعزز أواصر كل الطوائف، والجماعات، والعقول المؤدلجة فكان هناك الكثير من التجاذبات التي أدت إلى ضياع الوحدة (نصار ناصيف، 2003، ص ص 22، 23) إذن الأمة هي الوحدة الجامعة لجميع الاختلافات تحت لواء واحد فتزول الحواجز المذهبية والفواصل الطائفية وتتعزز فكرة المشاركة في الحياة .

وإحياء مفهوم الأمة يقوي الشعور بالانتماء و"الانتماء يؤكد حضور مجموعة متكاملة من الأفكار والقيم والأعراف، والتقاليد التي تتغلغل في أعماق الفرد فيحيا بها وتحيا به حتى تتحول إلى وجود غير محسوس كأنه الهواء يتنفسه ولا يراه" (وظفه علي سعد، 2013، ص ص 154، 155) يتضح هنا أن الانتماء هو تعبير عن الموروث الثقافي والروحي الذي يجمع بين الناس، فالانتماء في معناه تعزيز الجانب الروحي والمتمثل في العادات والتقاليد والقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية والإنسانية.

أما ناصيف نصار فيذهب إلى أبعد من ذلك حيث لا يحصر الانتماء في الجانب الثقافي ولا في الجانب الروحي ولا في البعد الجغرافي، وإنما برأيه الانتماء يجمع بين كل ذلك وهذا ما يظهر في قوله: " الانتماء إلى الأرض ليس مجرد انتماء جرافي، وإنما هو جغرافي، اجتماعي، سياسي، وبالعكس سياسي اجتماعي جغرافي حيث أن منطقة معينة من الأرض تصبح اسما وتاريخا وحاضنة لمستقبل سكانها

من حيث أنهم أصحابها ومستثمروها، يتأثرون بها ويؤثرون فيها ويبنون مشاريعهم عليها أو انطلاقا منها، وليسوا مجرد سائحين فيها" (ناصيف نصار، 2017، ص 32) وهنا لا يجعل نصار لأي نوع من العلاقات أفضلية عن الأخرى، وإنما جميعها تمس حياة بني البشر وتقوي شعورهم بالانتماء إلى الأرض التي يعيشون فيها ويتفاعلون عليها كما ويبنون آمالهم، وأحلامهم المتقاربة داخلها؛ فتحفظ كرامتهم ،واستقرارهم، وأمانهم فالماضي بمآسيه وأمجاده، والحاضر بمشاريعه وعلاقاته، والمستقبل بآماله وطموحاته، كل هذا من شأنه أن يغرس شعور الانتماء للوطن الواحد، بالإضافة إلى إقحامهم في المسائل الخاصة بالوطن ومشاركتهم في تحمل المسؤولية من خلال المشاركة في بحث القضايا الحساسة، فيصبح الحفاظ عليه وعلى ممتلكاته أولوية مقدسة ومن ثم يتنامى الشعور بضرورة تحقيق المصلحة العامة التي من شأنها أن تنفع الأمة جميعا وترتقي بها إلى مصاف التطور والتقدم بدل المصلحة الخاصة التي تؤدي إلى تضارب المصالح، وهذا لا يتمخض إلا عن طريق الوعي فيعد الضامن الوحيد لإنهاء الصراع الطائفي والتقلبات السياسية والتجاوزات اللاعقلانية في حق الآخر المختلف وما يعزز الشعور بالانتمائية للقومية العربية، هو الاتفاق والإجماع حول هدف واحد الذي يجب أن يشغل كل الطوائف وهو الرقي الحضاري والاستقرار الداخلي.

2.4 العلمانية المنفتحة وتقبل الاختلاف

العلمانية Secularism كنظام عالمي تبنته الكثير من الدول يقوم على فكرة الحياد اتجاه الجانب الديني . يحصر في المساجد. ولكن الطائفة في ذاتها تتبنى الأيديولوجيا الدينية، لا وبل تتأسس وترتكز عليها، وتشتهر بها، هذا يعني أن العلمانية كنظام تتبناه الدولة تقف موقف الحياد من المسألة الطائفية، وهذا غير مقبول، فالواقع يثبت أن الطوائف هي اللبنة الأساسية للمجتمع، فإذا أهملت وتركت للصراعات سقطت الدولة وانتهت و "التفكير الطائفي يجري على أساس

وجود الطائفة أو مصلحتها كأنها شخص يتمتع برغبات وخصائص أخرى معينة ... فإذا ما ارتفع الفرد عن مستوى فرديته، وارتقى نحو العام، فإنه يلقى مصلحة المجتمع ويتفهمها، أي أنه يدرك مصلحته الخاصة في ظروفها وشروطها العامة، كما يدرك مصلحة الآخرين في ظروفها وشروطها العامة. وهكذا يتمكن من أن يدرك وجوده كعضو في المجتمع السياسي المدني وأن يلتزم به باقتناع ورضى" (نصار ناصيف، 2016، ص 194) فناصيف هنا يشبه الطائفة بالفرد العاقل الذي يدرك أن هناك مصالح أخرى لغيره يجب أن تأخذ حقها فيرتفع عن أنانيته ويتعامل بقناعة، كذلك الطوائف إذا ما ترفعت عن أنانيتها في تحقيق المصلحة الخاصة، وأدركت واجب مراعات مصالح غيرها في سبيل مصلحة العامة انتهى الصراع بانخراط الطائفة ضمن المجتمع ويبقى السؤال هنا كيف يتحقق ذلك؟

يجيب نصار بأن هناك إمكانية كبيرة لتحقيق هذا الاندماج من خلال تعزيز الانتمائية والتحول نحو بناء قومية عربية كما ذكر سابق، وكذلك إذا ما تمكنت الدولة من تطبيق العلمانية والتي تقدم نفسها على أنها "خروج من هيمنة الدين وليس بالضرورة خروجا كاملا من الدين، القضية هي قضية معارضة لهيمنة معينة هي هيمنة الدين على حياة الإنسان الفكرية العقلية والسياسية، وليست قضية نفي للإيمان الديني من حياة الإنسان كليتها" (نصار ناصيف ، 2011، ص 260) فيتضح أن العلمانية النصارية هي في حقيقتها رفض للهيمنة وليس رفض لاتجاه دون آخر، وهذا يعني أنها تقوم على فصل السلطة السياسية عن الدين وفصل العقل عن الدين، لكن دون إقصاء أو تهميش للدين، أو السلطة، وهذا لا يعني أبدا انقطاع الأمة عن تراثها وعن معتقدها، فتأتي العلمانية هنا بمفهوم نصار أكثر اتزانا و أكثر انفتاحا ولا يمكن أن تقدم نفسها بديلا عن الدين ولا الدين بديل عنها بل لا يمكن أن يكون هناك تمركز وهيمنة لأحدهما على الآخر. وهذا النوع من الأنظمة يقرر نصار أنه لا يكون إلا داخل مجتمع علمي "فالمجتمع العلمي

يشجع على انتشار الفكر النقدي وعلى إعادة النظر في التقاليد وسائر الموروثات... ينبغي للدين من حيث هو علاقة وجودية بين الإنسان والمتعالي المطلق أن يتطهر بالنقد المتواصل من علائق التاريخ العرضية. والمجتمع العلمي العلماني يقدم الجو الملائم لكي تحاسب الطوائف نفسها على هذا الأساس فتجعل نفسها خادمة لأرض الدين الحقيقية لا لرجال السياسة أو نظام سياسي معين" (نصار ناصيف، 2016، ص ص 206، 207) فأراد بهذا فتح المجال أمام التفكير العقلاني وتشجيع خاصية النقد بشكل خاص حيث يقدم النقد العلمي المحايد معرفة موضوعية، وهذا بالضبط ما تحتاجه الطوائف لتكتشف أخطاءها وتفهم حقيقة توجهها.

إن الحديث عن العلمانية لا ينفك يمر بالليبرالية Liberalism ومسألة الحرية فتبني الفرد أو الجماعة لاعتقاد معين هو حرية لا يمكن قمعها و لا تضييقها حسب ما تطرحه العلمانية النصارية، وذلك بغرض تحقيق مجتمع سياسي متفق ومتجانس دون إقصاء ودون تماهي للهويات في هوية واحدة مفروضة، إحقاقا للديمقراطية Democracy حيث يقترح ناصيف نصار " أنموذجا للديمقراطية الليبرالية سماها التكافلية يتجاوز بها سقطات الاشتراكية، ويتجاوز بها أيضا معايب الديمقراطية التوافقية الطائفية" (مقورة جلول ، 2015، ص 186) حيث اعتبر الطائفية صراع أيديولوجي بين طرفين أو عدة أطراف على نفس الدرجة وهو أمر لا تخلو منه أي دولة موجود في كل بقاع العالم لكن يبقى صراع الأيديولوجي عند الغرب في الإطار السياسي المقنن ويأخذ في العالم العربي صيغ أخرى كالصيغة الدينية مثلا، ولذلك من الضروري محاولة التأسيس لمجتمع جديد يتحمل كل الاختلافات، مجتمع علمي علماني ديمقراطي يعتمد على مبادئ ثلاث هي: السيادة الشعبية Popular Sovereignty، وحرية الفرد Freedom of individual، والمساواة Equality بين المواطنين.

ومن ثم لا يمكن أن تستقيم هذه الديمقراطية إلا بالعلمانية بحيث تبقى الديمقراطية شرط للعلمانية تضمن حق التفكير وحق المعتقد وتضمن المساوات داخل أطياف المجتمع الواحد، والعلمانية هي تأكيد على استقلالية كل من الدولة والدين عن الآخر "إذ ليس من حق السلطة الدينية أن تستخدم أماكن العبادة للزج بها في معترك الصراعات السياسية، وليس من حق السلطة السياسية أن توظف أعمال المؤسسة الدينية في خدمتها، إن علمانية الدولة الديمقراطية تأبى أن تتحول العبادة إلى سياسة والسياسة إلى عبادة" (نصار ناصيف، 2017، ص ص 61، 62) فتحفظ كل من الدولة والدين استقلالها عن الأخرى مع حفاظ كل منهما على كيانه قائم، فلا تحكمهم علاقة فوقية، ولا علاقة دونية، ولا حتى علاقة ندية وإنما هي علاقة استقلالية تكافلية وطنية، وتبقى مسألة الديمقراطية مسألة وعي وتربية ولهذا كانت العلمانية المنفتحة على تقبل الدين وعلى تقبل التعدد والاختلاف the difference بهذا المنظور الضامن الوحيد والأساسي بنظر نصار لقيام دولة وطنية قوية يجمع شعوبها الإحساس بالانتماء إلى الأمة.

5. نقد وتقيم

تكمن قيمة الطرح الفلسفي الذي يقدمه نصار في نقاط عديدة، أهمها عودته إلى الواقع فيستل منه الأحداث التاريخية ثم يطرحها على مشرحة العقل، ويحاول أن يفهم أسبابها وأن يعالج الأزمة بموضوعية، من هذا المنطلق بادر نصار تقديم حل للصراع الطائفي، والذي هو في الأصل صراع هويات جزئية داخل دولة واحدة وما اشتداد الصراع بين هذه الهويات كما تم الذكر سابقا إلا نتيجة تأزم الحكم الاستبدادي للدولة، وخروجا من هذا المأزق يضع نصار العلمانية الليبرالية القائمة على الديمقراطية كنموذج يمكن من خلال تطبيقه فك الخناق على الدولة. والديمقراطية كما يقدمها نصار في جوهرها " خطاب أخلاقي، وسياسي، وعقلاني ولكنه سرعان ما يكتشف مجموعة آليات تقف حائلا

أمام تجسده بفعل عمليات التمويه والفساد التي لن تجد بديلا لحل هذه المشكلات بالتنظير الفلسفي، لكنها بحاجة إلى التربية المواطنية الصحيحة" (مقورة جلول، 2015، ص 191) إذن الواقع الذي يعج بالفساد يصعب إصلاحه بالتنظير لذلك اقترح نصار طريقة تحقيق التربية المواطنية من خلال الوعي وبعث القيم الأخلاقية، لكن هذه التربية بحاجة إلى جهد عظيم من السلطة التي تكتسيها الأنانية والسعي لتحقيق المصالح الذاتية، وهي مستفيدة من الوضع الراهن، ومسعاها لتحقيق النموذج الذي يقترحه نصار سيؤذي مصالحها أكثر. لذلك بقيت مسألة الطائفية تؤرق المثقف المنهم بهموم وطنه ولا تؤرق المسؤول الذي يحقق مصلحته.

إن التصور الذي قدمه نصار يرتكز على الحكم العادل ولكن التطلع إلى "حكم عادل كل العدل يكون ضربا من التمني، أو التغني بمثال تحول دونه طبائع البشر ونزعاتهم التي يصعب التحكم بها"(فخر الدين جودت وآخرون، دت، ص 263) فطبيعة الإنسان تستحوذ على جانب حب التملك والسيطرة الذي وإن كان الحاكم عادلا لا يمكنه أن يتغلب على هذا الجانب بشكل نهائي وهذا ما جعل تنظير ناصيف يرتقي نحو مثالية صعبة التحقق على أرض الواقع.

6. خاتمة

في الأخير حري بنا أن نعرض أهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال هذه الورقة البحثية:

الطائفة تعبر عن جماعة انقسمت عن المجتمع واحتمت بهوية تميزها وأيديولوجيا تعبر من خلالها عن ذاتها وعن وجودها، والطوائف تتنوع بتنوع أيديولوجياتها، وسبب بروز الطائفة الدينية كان نتيجة أغراض سياسية القصد منهـــا تحقيق المصالح الخاصة وذلك بتوسيع دائرة الاختلاف والتحريض على الكراهية، كما أن القلق الهوياتي هو السبب المباشر في احتدام الصراع بين

الطوائف وارتفاع مؤشر العنف، وهذا ما استطاعت الدولة الإسلامية في زمن الخلافة العباسية تجنبه ونجحت في الحفاظ على الهويات المتعددة، وقد كانت قيم الدين الإسلامي هي أحد أهم العناصر الفاعلة في زرع الإخاء والتسامح وثقافة العيش المشترك، هذه القيم التي غابت اليوم عن الدولة الوطنية مما أدى إلى فشل قيامها.

الانتماء هو مبرر الانتقال من مفهوم الدولة إلى مفهوم الأمة يقول ناصيف نصار، ولكن دون استبعاد ذلك الأول الذي يعد الحافظ لكيان الدولة السياسي والأمة كمفهوم هو إحياء للقيم وللثقافات التي تشترك فيها الطوائف، والذي يقوم على التفاعل بين كل ما هو ديني روحي، سياسي، وثقافي في رقعة جغرافية واحدة.

أما التنوع فهو ليس بالضرورة خطر مهدد وقاتل للدولة الوطنية، وإنما تعد فسيفساء الهويات داخل الدولة الواحدة هو إثراء وتشجيع على الإبداع، لهذا أراد نصار أن يكون نموذج العلمانية المنفتحة على تقبل الآخر، والرافضة للهيمنة حلا في استعاب كل الطوائف. هي بذلك رفض للهيمنة وليست إقصاء لأي طرف. ولذلك يقدم نصار العلمانية على أنها حفاظ على الحريات، وإحقاق للديمقراطية، وبالتالي هي الضمان الذي يمكن أن تستعين به الدولة الوطنية للحفاظ على كيانها في ظل تنامي الطائفية، وتبقى وجهة نظر ناصيف اجتهاد بشري ينم عن مدى انهمام المثقف الحق بهموم وطنه ومدى جديته في تقديم الحلول.